

فكل جماعة إنسانية متحدة منتظمة تسمى أمة، وتسمى في اللغات الأجنبية بطاقة الحصان، والقوة التي تتمكن من تنفيذ الأوامر وتنظيم الشؤون العامة هي السيادة، فإذا افترنت السيادة والأمة فتلك هي قوة الأمة السياسية. ونحن نتكلم عن سيادة الأمة حين تتولى الأمة ضبط شئون حكومتها. إن الوقاية للفرد أو الجماعة دفاع عن النفس، والقدرة على الدفاع عن النفس ضرورة من ضرورات الوجود، وبغير وقاية ومئونة لا يحافظ النوع الإنساني على وجوده. وقد ينقسم جهاد النوع الإنساني إلى عدة أدوار، وتقسيمه إلى هذه الأدوار يساعدنا على تتبع أصول الديمقراطية. فالدور الأول من جهاده كان نزاعاً بينه وبين الحيوان، والدور الثاني من جهاده كانت الحرب فيه وبين الطبيعة، ومن أجل هذا حدث لما هم يوان شي كاي بتنصيب نفسه عاهلاً على الصين أن أستاذًا أمريكيًا — اسمه جدنو Goodnow — أوصى باختيار النظام الملكي مع أنه ينتمي إلى أممديمقراطية ... لاعتقاده أن تفكير الصينيين لا يطرد على سنن التقدم، وقد انكأ يوان شي كاي على هذه الوصية ونادي بنفسه إمبراطوراً على الصين، فإذا كان اليوم بسياق الدعوة إلى الديمقراطية فعلينا أن نفهمها على غاية الجلاء والوضوح. فقال كنفishiros: إن كل من تحت السماء سيعمل للصالح العام يوم تسود الفكرة الكبرى، وكانت دعوته إلى عالم حر يسوده الإخاء ويؤول حكمه إلى الأمة. ومنشيوس كان يقول: إن القيمة الكبرى للشعب ثم للأرواح التي تتولى الزرع والغلة ثم يليهم جميعاً الأمراء، وكلما قرأنا تاريخ الصين تبين لنا أنها تقدمت إلى دراسة الديمقراطية قبل الأوروبيين والأمريكيين بألف السنين، فالاليوم وقد أخذ الأوروبيون والأمريكيون بالنظام الجمهوري، وليس هذا إلا من قبيل ما يُقال بغير فطنة لمعنى المقال، وما انتهينا إلى ذلك الشعار إلا بعد وقت طويل في التفكير والتقدير. وتعود الصينيون كلما نقلوا شيئاً عن أوروبية أن ينسخوه الكلمة بغير تعديل، وإذا كان الأوروبيون قد حاربوا في سبيل المساواة فالمساواة هي التي يحارب الصينيون أيضًا في سبيلها، فهو لا ينضوي إلى رايتنا إذا ناديناها بأسمائها. فلما ظفروا بالنصر إذا هم يتبنون أنهم لم يكتبوا من القوة إلا القليل مما علقوا به الآمال أثناء الثورة، ولم يشغلوا أنفسهم وهو يحاولون علاج مشاكل الصين بأن يعقدوا المقارنة بينها وبين الولايات المتحدة، فنحن إذا أردنا محاكاته وجب أن تهيء كل ولاية من ولاياتنا دستورها وحكومتها المحلية، ثم تجتمع الولايات أخيراً للاتفاق على دستور الأمة قاطبة، وهؤلاء أصحاب هذه الفكرة يسوقون تقسيم الولايات في بلادنا بقيام الولايات الأمريكية على هذه القاعدة، وقلما يخطر لهم أن يرجعوا إلى الحالة التي كانت عليها الولايات الأمريكية عند إعلان استقلالها، وكانت قبل ذلك على عهد أسرة منج متعدة، فإذا رجعنا إلى أسرة سانج وجدنا الولايات على رباط وثيق وجدنا الأقاليم كذلك بعد عبور نهر اليانجي إلى الجنوب، وقد كانت على أيام أسرة تانج وأسرة هان على رباط لهذا الرابط، فلن تصبح الصين أمّة ذات قوة ووفر إذا نجح الفادة كل منهم في توسيع سيطرته على الإقليم الذي هو فيه. فهذا تانج شيماو قابض على يونان، وعلىنا أن نفتح لأنفسنا طريقاً جديداً ولا نقتدي بغيرنا عمياً عن وجوه الاختلاف، وأوضح ما أعنيه فأعرض أولاً ما أعنيه بطبقات المجتمع الإنساني. فعلى أي شيء أقيم أقسام المجتمع الإنساني؟ على نصيب الفرد من الفطنة والكافية، وهي صاحبة الفطنة الفائقة التي تتضح لها المسائل المتشابكة من نظرة، وتلقي بالها إلى الكلمة فتبعتها بالعمل العظيم، وليس في طاقتها أن تبتعد وتبتعد، والطائفة الثالثة: هي التي لا تدرك ولا تعلم وإن حاول الآخرون تعليمها، وعز عليه أن يفرق بين حق السيادة وحق الكافية، وخلاصة العبارتين أن الحكومة إذا صلحت فتحن الملابين الأربعمائة نجعلها «شوكوليانج» لنا ونخلوها كل حقوق الدولة، فلا مناص من التمييز بين حقوق السيادة وحقوق الكافية والقدرة، ولا يقف منها أولئك الخبراء موقف الأبهة والرئاسة وفخامة المناصب، لأنه أشبه شيء بالآلات القديمة التي كانت عند اختراعها تستطيع أن تتقى، ولكنها لا تستطيع أن ترجع، ولا غنى لأداة الحكومة عن الجهاز الذي يدفعها قدمًا أو يردها ويثنينا إلى حيث يريد. ومسألة القانون مهمة للحكومة الديمقراطية كمهمة الموظفين، فإذا وجد من يحكم فلا بد أن توجد مع قاعدة لحكمه، ويومئذ تقرر السيادة الشعبية المباشرة. إن السيطرة المباشرة على الحكومة لا تستقر حتى يتولى الشعب هذه الحقوق الأربع «الانتخاب والعزل والاقتراب والاستفتاء» ويومئذ يصح القول باشتراك الشعب كله في حكم نفسه، (٨) مبدأ المعيشة من محاضرات كانتون سنة ١٩٢٤ و«مينج شنج» هي كلمة طالما طرقت الأسماع في الصين، ونحن نتكلم عن الرخاء القومي ومعيشة الشعب من أطراف الشفاه ولا نعني بفهم المقصود منها، ولست أرى أنها تعبّر لنا عن معنى كثير، فاستخدمت القوى الطبيعية كالبخار والحرارة وتيارات الماء والكهرباء بديلاً من الطاقة الإنسانية، واتسعت المسافة جداً بين طاقة الإنسان وطاقة المكنات، وهم يطلقون هناك كلمة الاشتراكية وكلمة الشيوعية كأنهما مترادفات، إلا أن الأمم اليوم تختلف في مذاهبها الاشتراكية وفي مقتراحاتها لحل مشكلاتها، فهل نحسب إذن أن الاشتراكية وجه من وجوه مسألة المعيشة، واطرد نموها وانتظامها وسررت دعوتها إلى كل أمة. غير أن الاشتراكيين الأوائل كانوا جميعاً طيبين يطمحون إلى بناء دنيا مثالية يظللها السلم والسعادة ولا تسمع فيها شكایة، وأنهى على الاشتراكيين السالفين لتعويتهم على ضمير الفرد وشعور الجماعة في حل مشاكل

الاقتصاد التي لا تجدي الأخلاق ولا تجدي العواطف في حلها، وقال: إن المهم قبل كل شيء هو درس أطوار الاجتماع، ورؤساء ينادون باستخدام الأساليب العلمية لعلاج المشكلات الاجتماعية، وكل دراسة في هذا العصر الذي تقدم فيه الحضارة المادية على عجل وتعاظم فيه قوة العلم ينبغي أن تقام على القواعد العلمية كي تثمر وتفيد، ولا يحق لنا أن نترقب حلاً لمشكلة من المشكلات قبل تناولها بالبحوث العلمية. ومتى تناولت القوى المادية فأنت مواجه مسألة الإنتاج قبل كل شيء ... وحيث لا يوجد إفراط في الإنتاج لا توجد بالبداية ثورة صناعية، وعلى هذا يحل الإنتاج المحل الأول من الأهمية في علم الاقتصاد الحديث، أو بالإيجاز بين كل غاصب وكل مغصوب، ولن تكف هذه الحرب حتى تبلغ الثورة الصناعية مداها من النجاح. واضح من ذلك أن ماركس يعتبر حرب الطبقات ضرورة من ضرورات التقدم الاجتماعي، على أن التوفيق بين معظم المصالح الاقتصادية في المجتمع إذا أمكن فمعظم الناس ينتفعون بهذا التوفيق والمجتمع يتقدم، ونحن لا نحاول التوفيق بينها إلا لعلاج هذه المشكلة: مشكلة المعيشة وتوفير المؤونة. والأخرى تنظيم رءوس الأموال، وهما كفيتان بحل مشكلة المؤونة في الصين. ومن البديهي أن أمم العالم المختلفة مضطرة إلى اتباع طرق مختلفة لحل هذه المشكلة حسب اختلاف الأحوال فيها. فالماركسيون يحلون جميع المشكلات الاجتماعية بالدكتاتورية العمالية وجميع مشكلات الاقتصاد والسياسة بالثورة، ينحو فيه كل فريق منحاة. ينبغي أن نذكر أن مبدأ المعيشة الذي يدعو إليه الكومنتانج ليس المطعم المثالى، وهو المحور الذى تدور عليه جميع الحركات التاريخية، وإنما الفرق في أساليب التطبيق. فما هي الواقع الأساسية عندنا؟ بل هناك فاقه عامة، وكل ما فيها فقر محتمل وفقر لا يُطاق، فكيف السبيل إلى التسوية بينهم وإلى الخلاص من براثن الفقر الشديد؟ وقد نشأ ملاك الأرض من عهد الإقطاع، وقد مضى نحو ألفي سنة على انتهاء عهد الإقطاع في الصين، ولكنها لم تخل من الملك الصغار، فشاعت المقامرة والمضاربة بالأرض وارتقت هذه المضاربات بأثمان الأرض ارتفاعاً لا يطمأن إليه. ونصف المشكلة كلها محلول إذا وفقنا في هذا العلاج، ولا يكفي تنظيم رأس المال إذا أردنا أن نحل مشكلة المعيشة وأن نستريح طويلاً بعمل حاسم، إن الصين لا تشبه غيرها من الأمم، يُخيل إلينا أنه ما من سبيل إلى وجهة صالحة، وكل كلام عن مبدأ المعيشة فهو أن يحصل الملايين الأربععائة على طعامهم بالثمن القليل، فلا تعتبر مشكلة المعيشة محلولة حتى يتوافر الطعام الصالح بثمن ميسور. فقد دلت الإحصاءات الأخيرة على أن الزارع لا يحصل من أرضه على أكثر من أربعين في المائة، وليس يكفي عند تناول مسألة الإنتاج الزراعي أن نجتهد لتحرير الفلاح، بل علينا مع هذا أن نجتهد لمضاعفة الإنتاج بالوسائل العلمية، وخلاصتها استخدام المكنات والاستعانة بالأسمدة والمخصبات ومناوبة الغلات والمحاصيل واستئصال الآفات وتنظيم المعامل والتصدير واتقاء الأزمات. ثم نلاحظ ذلك ببناء المصانع والمعامل، وعندنا وفرة من الأيدي العاملة، ولكننا لقلة المكنات لا نقوى على منافسة الأمم الأخرى، واستخدام المكنات في الإنتاج وتوفير العمل لجميع الأيدي الصالحة له في الأمة، وستكون مزاياها ومتاعبها مشابهة بين الأمة قاطبة، وسيحصل كل صيني على حصة من أرباح رأس المال فلا يضيره رأس المال كما يضرير أبناء البلاد الأجنبية التي ينحصر القسط الكبير من رءوس أموالها بين الأيدي الخاصة. وبهذا تصبح للشعب حصة في كل شيء ولا يكون قصارى الأمر أنه صاحب حصة فيما تنتجه الملكية الخاصة، ومتى كان الربح هو الغاية فنجاحنا في تخفيض سعر الأقواف يتحول إلى طلب الربح من وراء التصدير إلى الخارج حيث ترتفع أثمان الطعام، فالقضاء على نظام رأس المال حتم لا هوادة فيه، ولكننا نرى الموارد تنقص عاماً بعد عام؛ ومدار المبدأ الذي يتصل بمعيشة الأمة أن يحصل الناس على أقوافهم لا أن تمتليء الخزائن بالأرباح، ويضطررنا هذا إلى خزن الفائض سنة قبل المحصول الجديد فلا نسمح بالتصدير حتى نضمن الكفاية بعد العام القابل ... وأن مبدأ المعيشة يجعل الغاية تيسير القوت لجميع أبناء الأمة، ومثل هذا المبدأ قمين أن يقضي على شرور النظم الاجتماعية القديمة. فعلى عاتقها يقع عبء العمل لتزويد الشعب بضروراته المعيشية. فعلى الفلاح أن ينتج مواد الغذاء، وعلى كل بالإجمال أن يعرف واجبه ويقوم بأدائه على الوجه الأمثل. وقد حدث هذا من جراء التمدد والتلوّع في رءوس الأموال، وكل هذه المزايا تسندها من ورائها قوى الدول السياسية. وإنهم اليوم ليعاملون الصين كأنها سوق مستعمرة ويقطضون بأيديهم على حقوق السيادة الصينية وعلى شؤونها المالية، وعلينا أن نستولي على الجانب السياسي ونلغى المعاهدات الجائرة ونسترد مkos حقوق الموانئ من الأيدي الأجنبية،